بريد الجمعة

ثراء المعارف الرقمية

بريد الجمعة

الجمعة ■ ١٠ مايو ٢٠٠٢ ■

يكتبه : عبدالوهاب مطاوع

القيود الثقيلة!

أنا سيدة أبلغ من العمر ٤٥ عاما.. زوجة وأم لابنة عمرها عشرون عاماً تقيم فى محافظة ساحلية. وتعمل ابنتى بعد تخرجها فى القاهرة بوظيفة مرموقة وتحصل على مرتب عال والحمد لله. وهى تسافر بين مدينتنا والقاهرة لتذهب إلى عملها.. وفى احدى المرات وخلال عودتها من القاهرة إلى مدينتنا تعرفت على شاب بالصافرة يبلغ من العمر ٢٨ عاما، ويعمل بوظيفة مرموقة ومركز الاجتماعى جيد، وما ان تعرفت عليه حتى بدأت الاتصالات بينهما على المحمول وتوثقت العلاقة إلى أن فاتحها برغبته فى الزواج منها، وصارحتنى هى بذلك وصارحت أباها وبرحبنا بالفكرة، ثم جاء هذا الشاب إلى مدينتنا واتصل بزوجى وطلب منه يد ابنته ووافق زوجى مبدئيا واشترط عليه فقط أن تقيم ابنتنا بعد الزواج فى مدينتنا.. وألا تنتقل للاقامة معه فى مقر عمله ولم يعترض الشاب على ذلك وقال انه سينقل نفسه فى اقرب فرصة إلى محافظتنا. وإلى هنا وكل شىء جميل وواعد بالسعادة والتوفيق، وقد ابتهجنا بسعادة ابنتنا وتعلقها بهذا الشاب، غير أن البهجة لم تطل سريعا، فلقد صارحتنا ابنتى بعد أيام قليلة من اتصاله بأبيها بأن الشاب الذى أعجبت به وتريد الزواج منه متزوج وله من زوجته خمسة أبناء !

وقالت أن أبوبه قد شجعاه على الزواج وهو طالب بالثانوية العامة لأنه وحيدهما.. ويريدان أن يكون لهما منه أحفاد كثيرون يشعرونهما بأن لهما ،عزوة، تعوضهما عن عدم انجاب أبناء، غيره، لكنه كما قالت ليس سعيدا فى حياته.. وقد أحبها ووجد سعادته معها وأحبته هى أيضاً وتعلقت به! ونهلت حين سمعت منها ذلك وتعجبت كيف تقبلت هذا الأمر الخطير ببساطة وترغب فى الزواج منه. وناقشتها فى ذلك طويلا ونبهتها لما يحيط بها من أخطار فى المستقبل.. ولم تلقح جهودى ولا جهود والدها وأعيتنا كل الحيل معها لتبصيرها بما ينتظرها من مشاكل ومصاعب.. وبأنها سوف تندم على اختيارها بعد فوات الأوان.

إننى أخشى فى قرارة نفسى أن تكون منساقة إلى هذا الارتباط بدافع الخوف من أن يفوتها قطار الزواج لأنها كانت قد خطبت قبل تخرجها لشاب لمدة ٣ أشهر، وفسخت هى خطبتها له حين شعرت بمأبته وطمعه فى مالها، كما أخشى أيضاً أن يكون للفراغ العاطفى الذى كانت تعيشه بعد فسخ خطبتها أثر فى اندفاعها نحو هذا الشاب ،حيث إنها لم تقترب من أحد على هذا النحو قبل تعرفها عليه، إنها فتاة طيبة وشكلها مقبول للغاية وبدمها خفيف ومعاملتها للآخرين طيبة وتحظى دائماً بإعجاب من يتعاملون معها وسمعتها جيدة، والفرص أمامها كثيرة .فلماذا هذا الاختيار المر؟

إننى ووالدها وشقيقها نعارض جميعنا زواجها من هذا الشاب ونقول لها انه حرام أن تستولى على رجل من زوجته وأبنائه الخمسة.. وهى تقول لنا إنها لم تكن تعرف حين تعرفت به أنه متزوج وله أبناء، كما أنه كان سيترك زوجته سواء تعرف بها أو لم يعرفها وكان سيترك أطفاله لأبويه لكى يرعيانهم لأنهما يريدان العزوة وقد زوجاه من أجل هذا الغرض.

كما أنها تريد كذلك أن تتوقف عن العمل وتتحول إلى ربة بيت وتقول إن فتاها موافق على هذا.. وذلك بعد أن تعلمت وأنفقنا الكثير على دراستها حتى تخرجت وعملت، فلماذا لا تستمر فى عملها ومستقبلها فيه كبير، وتتزوج شابا بسيطا وتحيا معه فى أمان؟ وماذا أفعل معها يا سيدى؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

الذريعة الأبدية لكل من تسوغ لنفسها الارتباط برجل متزوج وله أبناء ، هى انه لم يكن سعيدا فى حياته الزوجية لأسباب تتعلق بزوجته الأولى أو ظروف زواجه منها.. وإنه كان سينفصل عنها إن آجلا أو عاجلا سواء تعرف بفارسة الحب الجديدة أو لم يلتق بها من الأصل! وبالتالى فإنها، اى الفارسة، لم تكن مسئولة عن انهيار الحياة الزوجية السابقة لمن ارتبطت به ولا عن انصراف رجلها عن أبنائه وزوجته الأولى إليها.

وكل ذلك ليس سوى من قبيل خداع النفس للتخلص من الشعور بالذنب تجاه الزوجة الأولى والأبناء.. أو من قبيل الحيلة النفسية الدفاعية التى تلجأ إليها لا ارادية كل من تجد نفسها فى هذا الموقف تهربا من الاعتراف لنفسها باغتصابها ما ليس من حقها وبإسهامها الخطير فى هدم سعادة الآخرين واشقائهم، غير أنها حيلة فاسدة وشديدة التهافت ولا تصمد للنقاش الموضوعى المتجرد من هوى النفس واغراضها، إذ يكفى لدحضها أن توجه ابنتك ، هذا السؤال البسيط إلى نفسها وتلتمس له الاجابة الصادقة.

نعم.. كان هذا الشاب تعيسا بزواجه وابنائه الخمسة وتزوج ارضاء لأبويه وكان سيهجر زوجته وأبناءه من قبل أن يلتقى بابنتك فلماذا إذن لم يكن قد حسم أمره وصح عزمه على تنفيذ قراره هذا قبل أن تظهر هى فى افق حياته.. فإذا التقت به بعد ذلك لم يكن لها بحق اى دور فى هدم هذه الأسرة الصغيرة ولا فى حرمان هؤلاء الأطفال الصغار من أبيهم؟ ولماذا لم يجىء هذا الحسم إلا بعد أن تعرف بها وتبادل معها الحب وتطلع للزواج منها؟..

وكيف لا تكون مسئولة بشكل أو باخر عن تعاسة زوجته الأولى وشقاء ابنائه الخمسة الذين سيحرمون من أبيهم وهو الذى لم يحسم أمره بشأن الانصراف عنهم إلا بعد أن ارتبط بها ومن أجلها؟

إن الإنسان قد تراوده الرغبة فى تغيير حياته وقد تعابثه أحلام اليقظة طويلا بأن يختار لنفسه طريقا غير الطريق الذى يمضى فيه أو اختارته له الأقدار دون أن يجرؤ على التغيير بالفعل اشفاقا على من يعتمدون عليه فى حياتهم من تبعاته أو اشفاقا على النفس من تحمل جريرة إيلام الآخرين واشقاء حياتهم.. أو اعلاء لسعادة الأبناء على سعادته الشخصية.. ولقد يمضى العمر كله وهذه الأفكار تراوده من حين لآخر أو كلما ضاقت نفسه فلا تخرج عن اطار احلام اليقظة والأمنيات المستحيلة.. إلى أن يجد المثير الخارجى الذى يحسم تردده ويغريه بحسم امره ويشجعه نفسيا على الإقدام على الخطوة المصيرية فكيف يعفى هذا «المثير الخارجى» نفسه إذن من المسئولية عن مثل هذا القرار الخطير ولو لم يكن قد ظهر فى الأفق من الأصل لما حسم الآخر امره وأقدم على ما تريد طويلاً من قبل امامه؟

إنها حقيقة واضحة وضوح الشمس ولاجدوى من خداع النفس عنها.. وهى أن ابنتك هى هذا «المثير الخارجى» فى هذه القصة المتكررة ولسوف تكون، وسواء ادركت ذلك ام تغافلت عنه، شريكة لهذا الشاب فى إشقاء زوجة بائسة وحرمان خمسة أطفال صغار من الحياة الآمنة بين ابويهم.

فلماذا تقبل لنفسها أن تبدأ حياتها الزوجية بمثل هذه الذيول الطويلة من المشاكل الانسانية والاتهامات الصامتة لها بالأنانية واغتصاب رجل متزوج من زوجته وابنائه حتى ولو كان هو الساعى إليها.

إن الأبناء روابط أبدية لا انفصام لها، وقيود اخلاقية ثقيلة يربها اصحاب الضمائر الحية على نزواتهم واهوائهم وجموحهم ونزوعهم الغريزى إلى طلب السعادة الشخصية على حساب الواجبات الإنسانية والأخلاقية، فكيف ترضى هى لنفسها بأن تتزوج شاباً يبدأ حياته الزوجية معها وهو يجر فى قدميه هذه القيود الثقيلة، كما كان السجناء فى العصور الوسطى يجرون اثقالهم معهم أينما تحركوا.. وكيف تتصور أنه سيخلو لها وجه زوجها وهو مكبل بهذه الأغلال الأبدية التى لن ينجح أبداً، حتى لو توهم ذلك، فى الانصراف عنها بكليته إليها..

إن عمر الهوى الجامح قصير مهما طال.. وصغر سنها الآن يصور لها أنها تستطيع التجاوز عن هذه الأغلال والقيود، لكن تجربة الحياة كثيراً ما تؤكد لنا عكس ذلك.. وكثيراً ماثبت لنا أن نطح الصخور لا يفتح فيها الثغرات وإنما يدمى رؤوس ناطحيها.. فلماذا تختار لنفسها كل هذا العناء فى الحاضر والمستقبل.. وفى يدها ان تختار لنفسها حياة طبيعية بلا مشاكل ولا اعباء؟